رد على أكاذيب برافدا:

لا نحن سلعة تباع ولا صفقة تشتري!

كنا قد أعددنا الحلقة الجديدة من " أوراق الرئيس السادات" عندما فوجئنا بالهجوم الذي شـنته صحيفة " برافدا" على ما قاله الرئيس السادات، أو على المعاناة الرئيس السادات فـي تقـويم العلاقات السوفيتية المصرية، وكان الاعوجاج دائماً من ناحية موسكو... ولذلك نعتذر عن عدم نشرها في مجلة " أكتوبر" وفي صحيفة " الرياض" بالسعودية، وصحيفة " السياسة" الكويتيـة على أن نستأنف نشرها في الأسبوع القادم إن شاء الله.

حتى في الكتابة عن العلاقات السوفيتية المصرية لابد أن يحدث شيء ما، يعطل سير الأحداث وتوالي الحلقات، ويكون ذلك من جانب السوفيت دائما!.

ليس من حقي أن أناقش حرية الصحافة، أو حرية الرأي، أو الحرية أو الرأي وكيف يتكـون في الاتحاد السوفيتي. فهذا تدخل في شئون روسيا لا أقدر عليه، وإذا قدرت عليه فليس لي هذا الحق.. فروسيا حرة في " تقنين" الحرية وتوزيعها بالبطاقات كما قال لينين، وهي حرة في أن تربط الأحزمة على بطون الأقلام وأصحاب الأقلام... أما المناسبة فهي المقال الغريب العجيب الذي نشرته صحيفة" برافدا" يوم 12 فبراير الحالي. وأسميه " مقالاً" تجاوزاً .. لأنه ليس مقالاً وإنما هو نوع من " الردح السوفيتي" لمصر كلها حكومة وشعباً. ولوجهة نظر مصر في كـل قضية، وتجنياً صارخاً على قيادتها السياسية.

ولأن هذا المقال صادر عن البرافدا، وهي " الوقائع الرسمية السوفيتية" . فهو إذن رأي الحزب السوفيتي والقيادة واللجنة المركزية والمكتب السياسي ورأي كل من يحمل على صدره النجمة الحمراء أو نجمة لينين. والمقال ليس وجهة نظر أحد من الناس. فليست في روسـيا وجهـات نظر. وإنما هي نظرة واحدة عامة للجميع...

ولم يحدث أن نشرت " البرافدا" وجهة نظر أخرى لأي إنسان يخالف فيها الحكومة أو القيادة.. – كما يحدث في الصحف المصرية المملوكة للشعب...

وإذا كانت في روسيا وجهات نظر أخرى، فهي التي تجيء في المنشورات السـرية أو علـى جدران السجون في سيبيريا، أو الخطابات التي يبعث بها مجهولون إلى السفارات الغربية فـي موسكو، أملاً في أن تنقل أصداءها إلى العالم الخارجي .. وهذه هي وجهات النظر التي يمكن

أن يعثر عليها إنسان في روسيا.. وقد هربت بهذه الطريقة ألوف الرسائل وعشرات الأعمـال الأدبية والفكرية- وهذه قصة أخرى.

ولم نسمع ولم نقرأ عن رأي أو وجهة نظر لأحد من الناس إلا إذا كان مغصوباً عليه.. أو إلا إذا كان قد مات، كما فعل خروتشيف في ستالين.. أو كما فعل آخرون في خروتشيف، فحذفوا اسمه من الكتب.. ونقلوا رفاته من مقابر الأبطال، إلى مقابر العمال.. و " الضرب في الميت" حلال، لأنه نوع من قبل الإنسان بعد أن مات.. ودفنه بعد أن دفن.. وهذه هي الحرية الوحيدة المسموح بها في الاتحاد السوفيتي...

ولذلك فلن يجد أحد، ولا وجد، رأياً مخالفاً لرأي الحكومة على النحو الذي نراه اليوم وغداً في صحفنا المصرية- مسكين هذا الشعب السوفيتي الذي لا يعرف الحقيقة ولن يعرفها!.

ففي المقال الذي نشرته صحيفة " البرافدا" – ومعناها " الحقيقة" – وهذه هي الحقيقة الوحيـدة في كل الصحيفة... أو في كل ما جاء في الصحيفة التي نشرت هذا المقال... في هذا المقـال إلى جانب الشتيمة المباشرة لمصر ولشعبها الكريم وإنجازاته العظيمة نقرأ: أن مصر انتصرت بالسلاح السوفيتي في حرب أكتوبر!

وهذه حقيقة لم ننكرها نحن في مصر ولا نحن في أي بلد عربي. بـل إن قيادتنـا السياسـية والعسكرية قد أعلنت ذلك كثيراً.

ولكن المعنى الذي يقصده السوفيت هو أن السلاح هو الذي انتصر ولـيس الـذين يحملـون السلاح. فالصواريخ انطلقت وحدها حسب خطة تلقائية، واستقرت في قلب العدو. كـل ذلـك بوحي نزل عليها موسكو...

أما العقول التي فكرت ودبرت، والأيدي التي استماتت على السلاح، والقلوب التـي امـتلأت بالإيمان بالله والوطن والنصر، فليس لها دخل في ذلك...

وكل ما حدث أن السلاح تكون من تلقاء نفسه على الضفة الغربية من القناة ونتيجة لأصـابع ضغطت على زرار في موسكو انطلقت الصواريخ والطائرات والمدافع وعبـرت واسـتقرت وانتصرت. واستطاعت أن تحول 5 يونيو سنة 67 إلى 6 أكتوبر سنة 1973... هكذا وبهـذه السهولة. والفضل أولاً وأخيراً للسلاح- انتهت النظريـة السـوفيتية فـي التفسـير المـادي لانتصارات أكتوبر المصرية السورية العربية... مع أن هذا السلاح كان معنا أيضـاً فـي 5 يونيو 1967 ولم ننتصر؟.

وإذا جاز أن يكون السلاح السوفيتي وحده هو الذي نصرنا في أكتوبر وخذلنا في يونيو، فهـل هو نفس السلاح الذي انتصر وحده فيتنام على أكبر ترسانة للسلاح الأمريكي؟

إن الروس يسقطون من حسابهم أعظم القضايا التي يتصدون للدفاع عنها وهي إرادة النصـر عند الشعوب أو كفاح الشعوب من أجل البقاء..

وهذا بالضبط ما فعله المصريون بالسلاح السوفيتي....

ولكن ليس بالسلاح وحده، سوفيتياً أو أمريكياً، تنتصر الشعوب.. وإنما الشـعوب بتصـميمها وإيمانها تنتصر على قوى البغي والطغيان .." فالشعوب صانعة المعجزات" – وهـو تعبيـر روسي أيضاً يقال في مناسبات كثيرة، أو في كل المناسـبات إلا مناسـبة انتصـار القـوات المصرية والسورية في أكتوبر 1973!

ولو حمل المصريون والسوريون أسلحة أمريكية أو بريطانية أو فرنسية فهل كانوا ينهزمـون لأن هذه الأسلحة لا تحمل هذه الكلمات المباركة : صنعت في روسيا؟...

إننا لم ننكر فضل الأسلحة السوفيتية. ولا نزال نطالب بها. ولم نتوقف. والرئيس السادات قـد فعل كثيراً وأعلن ذلك في كل مناسبة. ولكن المشكلة التي ليس لها حل حتى الآن- وإن كنـت أرجو أن نجد حلاً- هي أن الروس يعدون ولا يفون بالوعد، أو يعدون ويترددون ويتراجعون وينسون أو يتنافسون – حدث ذلك كثيراً جداً...

وإذا قرر الروس فجأة إرسال أسلحة لنا، فإنها تجىء على فترات متباعدة... ومعنى ذلـك أن يكون الوفاء بالوعد نوعاً من التردد.. أو التسويف... فلا هو وفاء بالوعد، ولا هو وعد....

وإذا طلبنا إليهم أن يصلحوا أسلحتهم، امتنعوا عن ذلك..

وإذا نحن طلبنا إلى دولة صديقة للطرفين كالهند مثلاً، أن تتولى إصلاح محركات الطائرات أو بيع قطع غيار لنا، تدخلت روسيا، فأمسكت يد الهند حتى لا تفعل ذلك... أي أن روسيا ترفض وتضغط على غيرها أن يرفض. وهذا نوع من التضييق على مصر أو خنقها عسكرياً...

ولا أدعي أنني من العسكريين أو من خبراء التسليح... ولكن عندما أضع هذه الصور أمامي. وأضع بعضها إلى بعض فإنني أنتهى إلى معنى واحد: روسيا لا تعطينا سلاحاً، وإذا أعطتنـا فإنه يجىء متأخراً إلينا جاء متقطعاً.. وإذا تعجلنا إصلاح الأسلحة التي فسدت رفضـت، وإذا

حاولنا باسم الصداقة أن نتجه إلى دولة أخرى، حالت روسيا بيننا وبين الأصدقاء .. فلا هـي تعطينا سلاحاً، ولا هي تكفينا شر غضبها.

ولا أعرف ما هو الاسم الذي يمكن أن تضعه البرافدا أو أصحابها لهـذا الموقـف السـوفيتي الثابت رغم حرص الرئيس السادات على أن يزحزحه أو يغيره دون جدوى....

فهل معنى ذلك أن السلاح الروسي المتراكم عندنا قد فقد جنسيته السوفيتية؟ هل أصـبح ابنـا غير شرعي؟..

هل المطلوب أن يتركوه حتى يتحول إلى خردة؟

فإذا أصبح خردة لم يعد هناك أمل في تعويضه أو إصلاحه ... وبذلك يتحول السـلاح فـي أيدينا إلى لعب أطفال؟

هل المطلوب ألا نحمل سلاحا؟

هل المطلوب أن نتعري أمام الترسانة الأمريكية العظيمة في إسرائيل...؟

فأين ذهبت " أغنيات" روسيا في مساندة الشعوب العربية في كفاحها ضد الإمبريالية العنصرية الإسرائيلية.؟.

أين دعاوى روسيا في الدفاع عن مكاسب الشعوب لعمالها وفلاحيها ومثقفيها؟

أليست مصر دولة اشتراكية شابة؟

أليست مصر تخطو بنجاح نحو الاشتراكية الديمقراطية؟

هل نحارب بالسلاح السوفيتي في معسكرات اشتراكية أخرى؟

ألسنا نحارب دفاعا عن الأمن القومي المصري، عن الشعب المصري الصديق؟ ألسنا نحارب عن أمن الأمة العربية التي أعلن السوفيت في مناسبات لا أول لها ولا آخر، أنه صديق العرب والأمة العربية؟

إننا ننظر إلى الشعوب السوفيتية الصديقة نظرة اعتزاز وامتنان. وقد أعلن الرئيس السـادات ذلك كثيراً. فقد ساعدتنا روسيا- هذه حقيقة.

ولكنها اليوم تمن... وتذهب إلى أبعد من المن... إنها تعيرنا، وتدوس كبرياءنا، وتدق كرامتنا بكلمات شائنة ملأت بها هذا المقال الذي نشرته في " الوقائع الرسمية" للحزب الشيوعي...

هل قرر السوفيت نهائياً أن علينا أن نختار بين أن نكون شيوعيين وألا نكون؟

إذا كان السوفيت قد قرروا ذلك، فقد أنكروا وتنكروا لكل ما ادعوه وكل ما أعلنوه من حريـة الشعوب في تقرير مصيرها، ومساندتها لكل الشعوب المناضلة من أجل السلام...

ويذكر المقال أيضاً دور الخبراء السوفيت في مصر. وكيف إن الرئيس السـادات قـد طلـب بقاءهم في حديثه إلى قادة الكرملين في أكتوبر سنة 1970...

ولم ينكر أحد دور الخبراء أو أهمية الخبرة الأجنبية. فقد احتجنا إلى الخبراء وما نزال نحتاج إلى الخبرة نستوردها من كل مكان في الدنيا... إنها سلعة ممتازة لابد أن نشتريها. ولسنا بدعا بين الشعوب. فالسوفيت أنفسهم يستعينون بالخبرة الغربية ورأس المال الأجنبـي: الأمريكـي والياباني والألماني.

وليست الثقافة والحضارة إلا نوعا من " التطعيم" الفكري والتزاوج التكنولوجي..

حدث ذلك في كل العصور.. وحدث عندنا، فقد فتحنا على أنفسنا أبواب الحضارة لتهب علينـا من كل البلاد المتطورة.

والرئيس جمال عبد الناصر طلب إلى السوفيت ما هو أكثر من ذلك ولم يجد حرجـاً عنـدما طلب أن يكون قائد الدفاع الجوي سوفيتياً. ولكن الروس خافوا علـى الوفـاق والعنـاق مـع أمريكا. فترددوا ثم رفضوا في النهاية!...

والرئيس السادات في كل محاولاته المستمرة أن يجعل العلاقات عادية بين القاهرة وموسكو قد بذل جهوداً مضنية...

وفي 20 إبريل سنة 1975 سلمت القاهرة لقادة السوفيت مذكرة تتضمن تصوراً شاملاً للأساس الاستراتيجي للعلاقات بين البلدين على المدى الطويل...

هذه المذكرة أرسلت بتعليمات صريحة من الرئيس السادات.. فماذا حدث؟...

لم ترد موسكو. ومعنى ذلك أنها قرأت المذكرة، وعرضتها على اللجان، ونقلتها اللجـان إلـى اللجان. وسكتت موسكو عن وثيقة بالغة الخطورة...

فما معنى ذلك؟ معناه أن موسكو لا تريد أن تتزحزح عن موقفها. فالذي اتخذته هـو موقـف ثابت جامد. وعلينا أن نضرب رءوسنا في الحائط. فإذا سقطت رءوسنا، فلا لوم على السوفيت إذا داسوها بالجزم. ومن أجل ذلك فنحن حريصون على أن تبقى رءوسنا على أكتافنا، مهمـا كان الثمن الذي ندفعه اليوم وغداً!...

ولا يعيبنا أحد إذا انتهينا من فهمنا لهذا الموقف إلى أن الروس يتهربون من مسئولية تطـوير العلاقات بيننا وبينهم، والاكتفاء بالخطب الرنانة والتراكيب اللغوية الفصيحة، تصويراً لحالنـا وحالهم... مع أن هذه التراكيب اللغوية الغريبة التي جاءت في مقال البرافدا ليست أكثر مـن أكفان حريرية للمعاني التي يحرص السوفيت على وأدها في أذهان المصريين وفي قلوبهم!

وقد تعبت شعوبنا من مثل هذا الكلام، ومن الكلام. ولو كان الكلام ينفع فـي حـل مشـاكلنا لانحلت هذه المشاكل منذ عشرات السنين.

ولو اقتصر العالم، والسوفيت بصفة خاصة، في تأييدهم للشعب الفيتنامي علـى حلـو الكـلام ورقيق السلام دون أن يمدوهم بالسلاح، لراحت فيتنام وعليها السلام ورحمة الله وبركاته...

ولكن فيتنام وقفت أمام أمريكا، واستدرجت الألوف من قتلاها، وألوف الملايين من دولاراتهـا إلى الأحراش والمستنقعات، بالإصرار والصبر والعناد...

والاتحاد السوفيتي كدولة عظمة، لا يشعر كثيراً بما تحس به الـدول الصـغيرة، والشـعوب الشابة، وإلا فكيف يوجهون إلى الرئيس السادات يوم 26 ديسمبر سنة 1973 نداء يطالبون فيه بسداد فوائد الديون العسكرية؟.....

وذلك قبل أن تجف لنا قطرات الدمع أو الدم أو العرق....

وكأنه كان في إمكاننا أن نسدد ذلك من الغنائم الإسرائيلية التي استولينا عليها...

ولكن السوفيت أناس عمليون جداً، حريصون على أن يؤكدوا لنا ولغيرنا أننا حاربنا بسلاحهم، وإننا مدينون لهم. وأن موعد السداد قد حان. كأننا أنكرنا أننا مدينون أو كأننا نسينا موعد سداد الديون.

إننا نذكر لهم ذلك، ونطلب اليوم وطلبنا قبل ذلك، أن نعطي بعض الوقت لسداد هذه الـديون. ولكن السوفيت يرفضون. ويصرون على أن المصانع التي اشتريناها منهم يجب أن يسدد ثمنها من نصف إنتاجها..أي من نصف عرق الأجير المصري، عاملاً وفلاحاً ومثقفاً.

وأثناء الحرب وفي أتون المعركة رفض السوفيت أن يعطوا مصر وسوريا سلاحاً، إلا بعد أن دفع الرئيس بومدين ثمن السلاح مقدماً.. أي قبل أن يبرح بومدين موسكو....

ولا أعتقد أبداً أن الشعوب السوفيتية الصديقة تعرف شيئاً عن هذه الحقائق. إذ كيف يعرفـون ذلك ..... فلا حقيقة هناك. فالحقيقة بهذه الصورة التي نشرتها برافدا، مجردة من الحقيقة.

هل الشعب السوفيتي يعرف هذا الأسلوب الذي تستخدمه حكومته ضد مصر وغيرهـا؟. إن الشعب السوفيتي لا يعرف إلا ما تقوله " الحقيقة" – أقصد صحيفة البرافدا!.

هل الشعب السوفيتي يعرف كم يقاسي الفلاح والعامل المصري لكي يدفع لروسيا 150 مليوناً من الدولارات سنوياً.؟

هل تعلم الشعوب السوفيتية أن الحكومة المصرية قد طلبت منذ أربع سنوات نصـف مليـون طن قمح، ولا تزال الحكومة السوفتية تبحث في هذا الطلب؟.

ونحن لنا عقول- إلا إذا رأى السوفيت أنهم احتكروا العقول أيضاً . وأن التفكير هو نوع مـن الترف لا يصح أن نمارسه.. ونحن لا يسعنا إلا أن نتساءل عن معنى هذا كله.

إن أقرب المعاني إلى رأسي كمصري وعربي أن الاتحاد السوفيتي يريد أن يؤدبنا. كما فعـل مع الشعوب أخرى كثيرة. فيقوم بتجوعينا من السلاح، وتجوعينا من الطعـام .. ولابـد أن السوفيت يرون أن الشعوب الصغيرة كالأفاعي تزحف على بطونها، على معداتها....

وكما أن التفكير نوع من الترف، فلابد أن الكرامة أيضاً هي قمة الترف. وعلى ذلك يجب أن نزحف على كرامتنا أيضاً.. أي يجب أن ندوس على كرامتنا ونمد أيدينا عبر البحرين الأبيض والأسود نطلب من السوفيت أن يجودوا بما جادت به عليهم دول أخرى من أموالها خبراتهـا وقمحها ومواردها الخام... لأننا سلعة تباع وصفقة تشترى!...

ولكن لماذا يفعل السوفيت كل ذلك معنا؟...

يؤسفني أنني مضطر أن أفكر أيضاً ككل الناس الآدميين في منطقتنا؟ لماذا؟.

لأن مصر تجرأت وركبت رأسها وانتصرت في حرب أكتوبر.

وكان من المفروض ألا نفعل ذلك حتى لو دخل اليهود القاهرة. لأن الذين أعطونـا السـلاح، يجب أن ننتظرهم حتى يعطونا الأمر باستخدام السلاح، فإذا تلقينا الأمر باستخدام السـلاح...

يجب أن ننتظر حتى يبعثوا إلينا بالأهداف... فإذا جاءت الأهداف تلقينا أمـراً بالعـدول عـن استخدام السلاح .. وبذلك يعمل السوفيت على إقامة تمثال طويل عريض عند مـدخل القنـاة وعند السد العالي اسمه: 5 يونيو سنة 1967 مع أطيب تحيات موسكو والقيادة السوفيتية....!

وبذلك تقوم رمال سيناء ورمال الزمن بردم البحر الأحمر تمهيداً لأن يعبره موسى مرة أخرى من سيناء، كما عبره أول مرة من مصر إلى سيناء.... وهكذا يحقق السـوفيت أعـز أمـاني إسرائيل في أن تحكم من النيل إلى الفرات....

وإلا فما الذي فعله السوفيت لمصر إذا قورن بما فعله الأمريكان لإسرائيل؟

إن أمريكا قدمت لإسرائيل منذ وقف إطلاق النار في أكتوبر سنة 1973 حتى يومنا هذا فـي شهرنا هذا في سنتنا هذه خمسة آلاف مليون دولار من الأسلحة المتطورة الأكثر تطوراً مـن الأسلحة الروسية....

ومن أعاجيب السياسة السوفيتية العربية أيضاً- إذا جاز لي أن أفكر أيضاً – أن روسـيا فـي الوقت الذي تضمن فيه علينا وعلى غيرنا بالسلاح ترميه من غير عقل في ليبيا .. وليس هناك جنود ولا هناك قدرة على استيعاب السلاح ولا عندهم قضية .. فما هو السبب؟

هل لأن ليبيا تدفع فوراً ونقداً؟...

هل لأن ليبيا ليست من دول المواجهة فتسليحها لا يقدم ولا يؤخر؟...

هل لأن ليبيا التي اتهمت روسيا بالكفر والإلحاد والصهيونية، قد عدلت عن ذلـك سـراً لأن روسيا آمنت بالله واليوم الآخر؟ أم أن ليبيا قد أصبحت سراً دولة اشتراكية؟...

هل السلاح الذي تكدسه في ليبيا ليس إلا " ترانزيت".. أي أن ليبيا هي إحدى المحطـات فـي طريقه إلى دولة ثانية من أجل تخريب دولة ثالثة.... ورابعة؟...

وآخر ما عندي من الأسئلة هو : ما هي الحكمة البالغة في أن تبيع روسيا السلاح لكـل مـن العراق والكويت معاً.؟

هل لأنهما ليستا من دول المواجهة؟..

هل ترى روسيا أن في إعطاء هاتين الدولتين الشقيقتين نفس السلاح فرصة ليكونـوا جمعيـاً رفاقاً في السلاح، تمهيدا لأن تكون بينهما وحدة في الدم الـذي سـوف يـراق علـى أرض البلدين؟...

أقول هذا واستغفر الله لي ولكم، فقد تدخلت في صميم الشئون الداخلية لروسيا... ولكن لـيس على النحو اللعين الذي تتدخل به في مصر!...

وقد أخرجت ما في صدري ووضعته على الورق أملاً في أن يقرأه المصريون والعرب وكل الناس... إلا قراء البرافدا!.

www.anwarsadat.org